

محاولة في وضعية التوزيع العمراني في منطقة قالمة خلال العهد النوميدي

د. محمد خير أورفه لي

معهد الآثار

شهدت منطقة كلاما نشاطا معماريا هاما اعتبارا من ق. 3 ق.م. حتى ولعبت أحيانا دورا هاما في الأحداث التاريخية التي جرت في شمال إفريقيا.

لدينا عددا من الدلائل على انتشار عدد من المدن في أنحاء المنطقة بكاملها. من أهمها نجد مدن كلاما (قالمة)، تباربوسيس (عين النشمة)، تيبيلس (عنونة)، قلعة بوعطفان، زطار (كاف بزيون) وقلعة بوصبع. (انظر الخريطة).

وجدنا في هاته المدن عددا من الشواهد التي تصعد للفترة النوميديّة. وكذلك معظم أسماء هاته المدن ذات أصول محلية مثل كلاما وتباربوسيس وتيبيلس، فالمعروف أن الأسماء التي تبدأ بالتاء

هي أسماء محلية حيث أن هذا النوع من الأسماء منتشرة في منطقة نوميديا مثل ثورسيكو Thubursicu (خميسة) وتقاست Thagaste (سوق أهراس) وثوقا Thugga (الدقة).

كلاما (قائمة):

مدينة صغيرة تواجدت منذ العهود البونية-النوميديّة واستمرت طوال العصور القديمة والإسلامية والحديثة⁽¹⁾ فهي تمتد على أسفل سفوح جبل ماهونة الذي يشرف على واد سيبيوس من الناحية الجنوبية ويمر من جانبها الغربي واد السخون ليرفد بعدها واد سيبيوس.

هذا ولا نجد ذكر المدينة عند الكتاب والجغرافيين القدامى باستثناء الأسقف أوغستينوس الذي يذكر بأنها تقع بين قسنطينة وهييون⁽²⁾. كما يذكر حولها بول أوريوس⁽³⁾ بأن الجنرال الروماني أولوس بوستميوس A. POSTUMIUS قد انهزم قرب مدينة قالمة على يد الأمير النوميدي يوغرطة حيث كان يحاول الاستيلاء على الخزائن الملكية وهذا ما يدل على أهمية المدينة خلال هاته الفترة.

ذكر بعض الباحثين باحتمال كون أصل المدينة فينيقي. فالدكتور جودا⁽⁴⁾ يرى بأن اسمها فينيقي وتدعى بالحروف الثلاث ملك حيث يظن بأنه قرأها على عدد من الكتابات البونية المتأخرة، وبأن الرومان حرفوا اسمها بقراءتهم لها بشكل عكسي أي من اليسار إلى اليمين

فأصبحت كلاما. وذلك أن الكتابة البونية مثلها مثل الكتابات السامية تكتب من اليمين إلى اليسار على عكس اللاتينية. إنها نظرية جذابة إلا أنها صعبة التصديق.

إن ما يلاحظ من الوثائق بأن المؤسسات والعادات النوميديّة واللغة البونية كانت قد ترسخت بشكل قوي في هذه المدينة منذ فترة مبكرة. فتواجد المدينة خلال عهود الممالك النوميديّة أكيد. ولكن معلوماتنا حول المدينة خلال هذه الفترة شبه نادرة باستثناء عدد من الأنصاب والشواهد الجنائزية المكتوبة بالبنونية المتأخرة التي توضح بعض الجوانب الدينية والجنائزية وأسماء الأشخاص، والتي يمكن أن يصل أقدامها إلى ق. 2 ق.م. فالأنصاب النذرية معظمها مقدم للإله بعل حمون وغير مكتوبة وتعد لما بين القرن 1-2 ق.م.

إن معبدا للإله بعل حمون-ساتورن كان متواجدا بالتأكيد في كلاما، إلا أننا نجهل المكان. ربما يجب وضعه، وذلك حسب إشارة رافوازيي⁽⁵⁾ في مكان على الضفة اليسرى لواد السخون (أي في الجهة غ/ش غ من المدينة) وعلى بعد 500 م من هذا الواد «على طول درب يوصل إلى الطريق الأكثر تداولاً نحو مجاز عمار» وحيث وجدنا أنصبا «فيها أشخاص منقوشين أكثر من كونهم منحوتين، رموز وعلامات غير معروفة ... لها أشكال مدببة في الأعلى» إنها عبارة عن أنصاب ذات كتابات بونية. فهل نحن هنا أمام مقبرة أم معبد؟ إننا نلاحظ بأن الأنصاب التي تقدم رسوم أشخاص هي نذرية ومعنى هذا فإنه من المحتمل أن معبدا كان متواجدا في الجهة ش/غ من

كلاما(6)، إن القيام بحفريات في المكان يمكن أن تؤكد ذلك. وعلى كل حال فإن المكان أمد بمجموعة هامة من الأنصاب النذرية المقدمة للإله ساتورن (بعل حمون) من العهد الروماني تؤرخ فيما بين القرنين 1-3م.

أما بالنسبة للجانب الجنائزي في المدينة فهي متنوعة وأهمها:

- عدد من الكهوف الجنائزية منحوتة في الصخر الرملي، كانت قد اكتشفت في القسم العلوي الجنوبي من المدينة سواء في الجانب الداخلي أو الخارجي للأسوار وعدد منها أيضا غربي موقع الحصن البيزنطي. معظم هاته القبور لها مدخل جبي من الطراز البوني. ووجود قسم من هاته القبور داخل الأسوار يدل على أنها سابقة للأسوار المبنية خلال العهد الروماني. وقد استمر فيها الدفن خلال العصر الروماني(7).

بالنسبة للنظام الإداري للمدينة لا يوجد لدينا أي شواهد حول نظامها خلال الفترة النوميديّة. إلا أنها خلال أوائل الفترة الرومانية أي خلال القرن الأول م. كانت المدينة محافظة على تقاليد عاداتها النوميديّة. وكانت معتبرة من قبل الرومان مدينة أجنبية Peregrin، بمعنى أنها ذات نظام محلي غير روماني أي ليس لها أي مرتبة إدارية من الناحية القانونية. فكانت تسير بنفس الطريقة المتبعة لدى النوميديين والبولنيين، وهي بواسطة قاضيين بلديين بمنصب تحت اسم شوفط يعينان لمدة سنة واحدة وپرنسبس (بالبنوية رب)(8)، وربما هذا كان عبارة عن رئيس عشيرة أو قبيلة تقطن أراضي المدينة، له سلطات

عليها معترف بها من الناحية القانونية، هاته الأسماء لا تحمل نوعية الإسم الثلاثي الذي يحملها المواطنون الرومان، ولم يكن لها قبيلة محددة أي أنهم لم يكونوا مواطنين رومان. حتى وأسماءهم كانت ذات طابع بوني أي نوميدي.

عند هزيمة بومبي وحليفه يوبا الأول على يد يوليوس قيصر وموت يوبا الأول وانتهاء الكيان السياسي شبه المستقل لنوميديا معها. دخلت كلاما ضمن إقليم أفريقيا نوفا Africa Nova وبقيت هكذا حتى قيام ولاية أفريقيا البروقنصلية حيث ستكون ضمنها وعلى حدودها الغربية.

تباربوسيس (عين النشمة):

تقع مدينة صغيرة قديمة تبعد بحوالي 4 كلم ج / غ قالمة(9). تمتد بقاياها على سفح جبلي هو جزء من جبل ماهونة. ويحدها من الناحية الشرقية والجنوبية واد السخون. يسمى المكان حاليا مجمع جريدي، وقد امتد السكن الحديث حاليا فوق جانب هام من المدينة القديمة. المدينة كانت متواجدة منذ فترة مبكرة من العهود النوميديّة واستمر وجودها حتى فترة متأخرة من العصور القديمة أي خلال العصور الرومانية والبيزنطية.

وقد أمد الموقع حتى الآن مجموعة من الوثائق الأثرية الهامة التي تدل على أهمية الموقع والمدينة قديما، سواء من الناحية التاريخية أو الحضارية تتمثل خاصة في مجموعة من البقايا المعمارية والكتابات والأنصاب.

المكتوب بالبنونية المتأخرة والتي تعود للعهد النوميدي وخاصة القرنين 1-2 ق.م. (14).

تيبيليس (عُونة):

المدينة على حوالي 23 كم ج / غ قالمة في منطقة هضبية محاطة بضواحي زراعية خصبة تنحدر سفوحها الشرقية بشكل قوي نحو واد عُونة الذي يرفد واد شرفة (15). ولا تغطي حالياً أكثر من 10 هكتارات وطبعاً لم يكشف حتى الآن عن المدينة بكاملها إلا أن جزءاً كبيراً منها ظاهر. ومن ناحية استمرارية الحياة في المدينة فعدد من الشواهد وإن كانت قليلة تدل على وجود المدينة منذ العصور النوميديّة. وهذا يتمثل خاصة في مجموعة من الأنصاب النذرية التي يمكن أن تصعد إلى أوائل ق 1 ق.م. والتي تتعلق بعبادات آلهة الخصب الزراعية وخاصة بل حمون.

وقد بقيت هاته المدينة عبارة عن ضيعة قليلة الأهمية وكمركز للمقاطعة الريفية لكونفدرالية سيرتا خلال فترة طويلة من العصر الروماني وذلك حتى النصف الثاني من ق. 3 م. حيث حصلت على مرتبة البلدية.

قلعة برعطفان:

تبعد بحوالي 3 كم ج / غ عن عين العربي وتقع على الضفة اليسرى من مخرج خانق واد شنيور (16). مدينة صغيرة وهامة مازال اسمها مجهولاً.

وقد عرف اسم المدينة خلال العصر الروماني من الكشف عن نقيشة كتابية عام 1953، يعطيها تسمية تباربروسيس (Thabarbusis) (10) وهو اسم ذو أصول محلية يبدأ بالتاء مثل عدد من المدن الأخرى كما لاحظنا سابقاً.

هذا وقد بقيت خلال فترة طويلة من العصر الروماني في حالة المدينة الحرة Civitas (11) المعتبرة أجنبية أي مدينة محلية وهذا حتى النصف الثاني من القرن 4 م حيث حصلت على مرتبة البلدة Respublica (12).

وقد زدنا الموقع بعدد هام من الكتابات المنقوشة البنونية والليبية والأنصاب النذرية من العهد النوميدي ذات أهمية كبيرة بما يمكن أن يمدنا به من معلومات حول المجتمع في هاته المدينة. فقد تم الكشف عن عدد هام من الأنصاب النذرية في السفح الشرقي للربوة الموجودة في شمال المدينة حيث يعود قسم هام منها للعصر النوميدي وفيها ما هو مكتوب بالبنونية المتأخرة (13).

أما هاته الأنصاب التي لدينا فهي متشابهة في أشكالها. فمعظمها يقدم مشاهد تصويرية ذات مغزى ديني من صورة القرص الشمسية والهلال في الأعلى تحتهم صور الأشخاص مقدمي النذور بشكل تخطيطي ويحملون بأيديهم سعف نخل أو خبزا بشكل تاج أو عنقود عنب. وأحيانا بجانبهم الضحية المقدمة كقربان. ومعظم هاته الأنصاب تؤرخ لما بين القرنين 1-2 ق.م. ونرى استمراريتها حتى القرن 1 م.

أما الجهة الغربية والجنوبية الغربية من الموقع وخاصة جنوبي موقع ربوة المعبد فقد أعطانا المكان عدداً من الأنصاب الجنائزية منها

قلعة بوصبع:

تمتد آثارها ش / شرق المدينة الحديثة (20). لم تجر عليها حفريات حقيقية فمعظم مكتشفاتها عرضي. تتمثل بقاياها في:

- بقايا جدار سوروبرج دائري غير محدد التاريخ.
- بقايا بناء مستطيل أبعاده 80/150 م غير محدد التاريخ.
- أنصاب مصورة نذرية وجنازية منها ما كشف عنه خلال أشغال البناء في عام 1994 نجد فيما بينها ما يمكن أن يصعد حتى ق. 1 ق.م.
- كتابات بونية جديدة (21).
- كتابة مزدوجة اللغة بونية جديدة ولاتينية (22) تعطي اسم نوميد باللاتينية (أنظر الشكل).

النص البوني فيها أعطى اسم تسدت ابن متعت ابن جوطعل النجري.

النص اللاتيني يمد نفس الاسم ولكن ملتن بالشكلية روفوس ابن ميتاليس (Rufus; Metatis filius. Num (idae) إذا تقبلنا نوم (يدي) بهذه الشكلية فإننا قد أعطينا نفس المعنى لما يقابلها بالبونوية نجري. وحيث أن هذا المصطلح مستعمل في حوالي 5 كتابات ليبية تحت شكل نجره NGRH وهاته الكتابات وجدت في منطقة سوق أهراس وبوشقوف أي في منطقة نوميدية تماما.

هذه الكتابة هي من أوائل الشواهد الكتابية القديمة التي أعطتنا تسمية نوميديا باللاتينية والتي ربما يقابلها بالبونوية لفظ نيجري. هذا ويمكن أن يعود تاريخ هذه الكتابة إلى ق. 1م.

كانت متواجدة خلال العصر النوميدي، واستمر تواجدها خلال العصور الرومانية والبيزنطية. وتتمثل أهم بقاياها الأثرية من العهد النوميدي في بقايا معمارية من تيجان ذات طراز بوني وعمادات وأعمدة. هذا بالإضافة إلى حصن في الجانب العلوي وبقايا معمارية كثيرة غير محددة المعالم.

كاف بزيون:

مدينة قديمة تقع فوق ربوة يشرف على منحدر شديد نحو واد الحمام (17). تواجدت منذ العهد النوميدي واستمر تواجدها خلال العصور الرومانية والبيزنطية. وقد وجد بأن اسمها يبدأ بالحروف زات Zat (18)، والتي تعني على الأكثر بلدية زاتار.

عدد من الشواهد أثبتت تواجد المدينة منذ ق. 3 ق.م. من العهد النوميدي وتتمثل في عدد من الكتابات البونية الجديدة:

- كتابتان وجدتا من قبل ماكاف لابلاين M. Macave Laplagne على بعد 500 م من الواد على سفح جبل مكرمن (أطلس قزال، ورقة 18، رقم 233).

- كتابة جنازية بونية جديدة تتواجد حاليا في المتحف الوطني للآثار باسم زالول بنت بركبعل Zalut bt BRKBL يعود تاريخها للقرن 3 ق.م. (19).

الهوامش:

- (1) - St. GSELL, Atl. Arch., Alg. f.9, Bone, 146.
 - (2) - St. AUGUSTIN, Contra litteras petitiiani, II, 9, 288.
 - (3) - Postumium .. apud calmam urbem thesauris regiis conditis inhiantem bello oppressit.) Paul OROSE, V., 15, 6.
 - (4) - JUDAS, Nouvelles études sur une série d'inscriptions numidico-punique, p. 31.
 - (5) - RAVOISIE, Exploration scientifique de l'Algérie, II, p. 21; Atl. Arch. Alg.; f 14, n 149, p. 20.
 - (6) - M. LEGLAY, Saturne africaine, Monuments, II, p. 386-387.
 - (7) - DELAMARE, Exploration scientifique de l'Algérie, Archéologie, Paris, 1850, pl. 176, fig. 3, 4; pl. 170, fig. 7-13; E. GRELOIS, Etudes archéologiques sur Guelma (ancienne Calama) et Hammam el-Meskhoutine, Metz, 1852, p. 288-289.
 - (8) - I.L.A. 1, 233, 290; GASCOU, Politiques municipales, 106-108; C. LEPELLEY, Les Cités de l'Afrique romaine au Bas-empire, t. 2, Paris, 1981, p. 91.
 - (9) - S. GSELL, Atl. Arch. Alg., f 9 (Bone), no 150.
 - (10) - M. LEGLAY, B.C.T.H., 1954, p. 194; S. LANCEL, Populus Thabarbusitanus et les Gymnasia de Quintus Flavius Lappianus, Libyca, t. VI, 1958, p. 143-151.
 - (11) - I.L.A. n 469.
 - (12) - I.L.A. n 472.
- تؤرخ هاته الكتابة لعام 175 م
- (13) - J.B. CHABOT, Les inscriptions néopuniques de Guelma (Calama), Journal asiatique, t. VIII, 1916 (punica), pp. 498-520; DELAMARE, Exploration ..., pl. 185, 187.
 - (14) - J.B. CHABOT, Op. cit., p. 483-498.
 - (15) - S. GSELL, Atl. Arch. Alg. f 18, no 107.
 - (16) - S. GSELL, Atl. Arch. Alg., f 18, no 200.
 - (17) - S. GSELL, Atl. Arch. Alg., f 18, no 233.
 - (18) - C.I.L., VIII, 17268: I.I.A.I, 534.
 - (19) - H.G. HORN, C.B. RUGER, Die Numider, Reiter und konige nordilich der Sahara, Bonn, 1979, p. 578.

- هذا بالإضافة إلى كتابة لاتنية مكرّسة للإله بعل إدير البوني Baldir (23)، فرغم كون هاته الكتابة من العصر الروماني إلا أنها تدلنا على تواجد عبادة إله بوني نوميدي خلال هذه الفترة.

يمكن أن نستنتج من هذا بأن:

- تواجد المدن في المنطقة يمكن أن يصعد حسب الشواهد حتى ق. 3 ق.م.

- من الجانب العمراني عدم تواجد الآثار العمرانية التي تصعد لما قبل ق. 1 ق.م. باستثناء بعض العناصر المعمارية النادرة مثل جذوع الأعمدة والتيجان ذات الطراز البوني.

- الشاهد الوحيد حتى الآن تقريبا هي الأنصاب النذرية والجنازية والقبور.

- المصادر الكتابية الكلاسيكية حول الفترة نادرة باستثناء ما يتعلق بحروب يوغرطة.

- الكتابات الأثرية معظمها بونية جديدة ولها الطابع النذري أو الجنازي.

- هاته الكتابات أمدتنا معلومات حول الأسماء وطبيعتها وأسماء الآلهة.

- بقاء البونية حتى ق. 1م. وهذا من الكتابة المزدوجة لقلعة بوصبع.

